3 - الأضرحة :

الضريح هو الحُجرة المشتملة على قبر أو تربة تعلوها قبة ، وقد ميز البعض بين القبر الذي هو حفرة الميت وبين التربة التي هي بناء مقام فوق القبر .

وقد استخدمت عدة مصطلحات في العمارة الإسلامية للتعبير عن الضريح ، فأطلق عليه لفظ "القبة" ، وهو عنصر معماري موروث عن الساسانيين والبيزنطيين ، ثم استخدمت القبة عند المسلمين لتغطي الغرف المربعة والمستديرة للأضرحة ، ثم أطلق الجزء على الكل وأصبح يسمى بها الضريح كله .

ويسمى الضريح أيضا "تربة" والمقصود بها المبنى الضريحي الذي يقام على رمس الميت ، واستعمل هذا المصطلح عند الأتراك ، وأطلق عليه أيضا اسم مشهد كما أطلق عليه اسم مزار نسبة إلى الزيارة ومصطلح " إم زاد " أو " شاه زاد " ، وأطلق عليه أيضا لفظ " مقام " خاصة في البلاد العربية ، وفي المغرب استعملت كلمة "مربوط" للدلالة على الضريح أيضا .

ويرجح أن الظهور الأول للأضرحة في الإسلام كان في العهد العباسي ، ولعل أقدمها ذكرا في المصادر التاريخية هو ضريح البرمكية الذي بناه هارون على قبر أم الفضل بن يحيى سنة 187 هـ ، ومن أقدم الأضرحة التي لا تزال آثارها باقية لليوم القبة الصليبية بسامراء ، والتي يعتقد أن الخليفة المنتصر (ت 248 هـ) قد دفن بها ، وفي مصر نجد ضريح مقبرة أسوان من القرن 3 هـ ، ومشهد الجيوشي 478 هـ ، ومشهد السيدة رقية 527 هـ ، أما في بلاد المغرب فربما تعد قبة سيدي بوخريسان 486 هـ بتونس الأقدم ، ثم قبة البروديين المرابطية مطلع القرن 6 هـ ، ثم ضريح المهدي بن تومرت الذي بناه عبد المؤمن بن علي منتصف القرن 6 هـ ، وهكذا انتشر بناء الأضرحة في بلاد المغرب .

وقد عرف بناء الأضرحة تطورا كبيرا بالجزائر منذ مجيء العثمانيين الذين كان لهم توجه صوفي واضح ، وهكذا صار التصوف سمة العصر وانتشر بكثرة بناء الأضرحة التي كانت تقام على قبور الأولياء والمرابطين ، وكذلك على قبور الحكام وكبار رجال الدولة من الساسة والقادة ، وهناك من لاحظ أن هذه الأضرحة تزيد كلما اتجهنا غربا ، وقد ذكر الجنرال كوفي أن منطقة وهران وحدها كانت تضم أكثر من مائتي

ضريح تحمل اسم سيدي عبد القادر الجيلاني ، كما وضع تقسيما لأنواع الأضرحة على النحو التالي :

- أضرحة ذات قباب نصف كروية .
- أضرحة عبارة عن أكواخ صغيرة مغطاة بسقف مسطح أو سطح يعلوه قرميد .
- أضرحة ذات قباب مغطاة بقرميد .
- أضرحة ذات قباب مخروطية .
- أضرحة هرمية الشكل بدون شرفات وهو تأثير مغربي أندلسي بدأ انتشاره مع مطلع القرن 12 م .

ومن الملاحظ أن النوع الذي كان أكثر شيوعا وانتشارا بالجزائر هو الأضرحة ذات الشكل المربع الذي تعلوه قبة نصف كروية محمولة على منطقة انتقال مثمنة الشكل ، وفي بعض الأحيان بدون منطقة انتقال .

ولدينا نماذج كثيرة جدا من هذه الأضرحة التي تعود للعهد العثماني ، نذكر منها ضريح سيدي إبراهيم بن التومي بعنابة (1769) ، ضريح سيدي المبارك (ت 1622) بخنقة سيدي ناجي شرق بسكرة ، ضريح سيدي السعد بن أبي بكر بسوق أهراس ، ضريح سيدي محمد الغراب (6 كم عن قسنطينة) ، ضريح ثلاث سيود ملحق بمسجد سيدي غانم بميلة ، ضريح الزاوية الحسينية بلدية سيدي خليفة بميلة ، القبة الضريحية بالجامع الأخضر الذي بناه الباي حسن بوحنك سنة 1743 ، والقبة الضريحية بمدرسة سيدي الكتاني التي بناها صالح باي سنة 1776 ، ضريح الباي مصطفى بوشلاغم بمستغانم الذي يعود لمنتصف القرن 18 .

ويعد ضريح سيدي عبد الرحمان واحدا من أشهر الجزائر من العهد العثماني ، يقع هذا الضريح ومسجده حاليا في أطراف القصبة على طريق باب الوادي ويشرف على شارع عبد الرحمان عرباجي في نقطة التقائه مع شارع عبد الرزاق حداد ، وشماله نجد كل من ثانوية الأمير عبد القادر وحديقة براغ .

والضريح كما نشاهده اليوم أمر ببنائه الأمير الحاج أحمد بن الحاج المصلي سنة 1108 هـ / 1696 حسبما هو موضح بكتابة تأسيسية تعلو باب الضريح ، هذه المنشأة

بجميع مرافقها تغطي مساحة قدرها حوالي 1400 م^2 وتشتمل على مسجد صغير قليل الأهمية ودوره ثانوي إذا ما قورن بالضريح ، وله منارة أنيقة مربعة المسقط ، وقاعة الضريح وهي قبة قبر الشيخ عليه تابوت كما هي العادة وعدة بيوت ومرافق وسكنى للوكيل متصلة بالمسجد ، قاعة إيواء لعابري السبيل والفقراء ، وفي الخارج مقبرة خاصة ومجموعة من المراحيض العمومية تضم عين ماء وأماكن للوضوء .

وفي قاعة الضريح قبور لعمر باشا ومصطفى باشا والحاج علي بن الحفاف ، وفي الخارج قبور أخرى كثيرة في أرض كالحديقة ، وفي حظيرة لها باب مغلق قبر أحمد باي قسنطينة المتوفى بالجزائر سنة 1850 .

يتم الولوج إلى الضريح عبر مدخل يعلوه عقد حدوي تليه سقيفة صغيرة ، وعن يمينها دهليز به بعض الغرف مخصصة لوكيل الضريح ومساعديه ، وسلم يؤدي إلى قاعة في الطابق الأول كانت تستخدم كمصلى ، أما عن يسارها فيوجد رواق صغير وفي جداره الأيسر مدخل قاعة الضريح حيث يوجد قبر الشيخ عن اليمين مغطى بهيكل خشبي .

قاعة الضريح مربعة المسقط تقريبا بأبعاد 7.19م طولا و 7.77م عرضا ، تعلو هذه القاعة قبة مضلعة محمولة في زواياها الأربع على عقود نصف دائرية تقوم بدورها على مجموعة من الأعمدة الثلاثية المدمجة مع بعضها ، هذه الأعمدة من الرخام وتيجانها ذات طراز سعدي ، وقد كسيت جدران القاعة بمجموعة من البلاطات الخزفية المختلفة الألوان والأشكال .

أما عن الكتابات التأسيسية والتذكارية التي خلدت المبنى فهي ثلاثة :

- الكتابة الأولى :

جاءت هذه الكتابة على لوح مربع من الرخام أبعاده 40×41 سم لكننا لم نعاين هذه الكتابة ولم نعثر عليها ، ونفذت هذه الكتابة بطريقة بارزة موزعة على ستة أسطر كالتالي :

سطر 01 : بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد .

سطر 02 : تم البنا حقا بعون الله عن يد أميرنا ذو الجاه .

سطر 03 : من فاق أرباب السخا والفضل الحاج أحمد بن الحاج مصل .

سطر 04 : أرشده الله إلى التوفيق بحرمة الفاروق والصديق .

سطر 05 : تاريخه يا سايلا بصدق في النظم قد جعلته بشوق .

سطر 06 : عام ثمني وميا وألف .

والتاريخ المذكور يوافق كما ذكرنا سنة 1696 م .

- الكتابة الثانية :

ذكر بورويبة وكذلك بن بلة أن هذه الكتابة نفذت على لوح من الرخام لكن هذا اللوح دهن بألوان مختلفة (الإطار الخارجي بالأخضر ، الإطار والخطوط الداخلية بالرمادي القريب إلى الفضي والكتابة باللون الذهبي) بحيث صار من الصعب تحديد مادة اللوح لكن من خلال الملمس والشكل الخارجي نشك في أنه كان من الرخام وربما يكون من الحجر الكلسي أو الجص فقط وهناك دليل قد يدعم هذا الافتراض وهو أن الرخام يحافظ على شكله وملمسه بالتالي لا يحتاج إلى هذا النوع من الطلاء ، ونرجح أن هذا اللوح لم يدهن بهذا الطلاء البراق إلا للمحافظة عليه من التدهور لأنه لم يكن رخاميا .

ومهما يكن من أمر فإن هذه اللوحة ثبتت على الجدار الجنوبي لقاعة الضريح ارتفاعها 46 سم وعرضها 36 سم .

تتكون الكتابة من سبعة أسطر ، الست الأخيرة منها هي أبيات شعر نظمت على وزن البحر الكامل ، وحصر كل مصراع في مستطيل رديء التخطيط ونص الكتابة كالآتي :

سطر 01 : الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

سطر 02 : كمل البناء بحمد رب فاتح * لمحرم يسمو بحسن واضح .

سطر 03 : سنة اثنتين وأربعين تعقبت * مائة وألفا أسرعت كالجامع .

سطر 04 : في مدة الأحضا الأمير المرتضى * عبدي وقاه الله كل طوائح .

سطر 05 : ولقد سعى فيه الوكيل محمد * الفاضل المشهور بابن الواضح .

سطر 06 : يعطينا الله وإياه الرضا * ويقيلنا من كل ذنب فاضح .

سطر 07 : هما لذات القطب لاري * ركنا لمقهور وقصد رابح .

- الكتابة الثالثة :

نقشت هذه الكتابة على لوح مربع من الرخام الأبيض ناصع البياض ضلعه 50 سم ، ثبت في صلب الجدار الشمالي للرواق الواقع قبل قاعة الضريح ، ونفذت الكتابة بالأسلوب البارز وبخط الثلث ، لكن هذه اللوحة تعرضت الآن للتشقق ورممت بالجص ، كما أن حالها تدهور كثيرا بحيث صار من الصعب جدا قراءتها وهناك أجزاء لا يمكن قراءتها البتة لأنها انمحت تماما ، ويبدو أن ذلك راجع لعوامل تتعلق بالاحتكاك خاصة وأن الكتابة بارزة ، ولذلك فقد حاولنا الاعتماد على قراءة بورويبة لها ، وقد جاءت هذه الكتابة في سبعة أسطر وهي كالتالي :

سطر 01 : هذا مقام شيخنا الثعالبي * ... الثناء الجميل والمناقب .

سطر 02 : تم بعون الواحد الجليـل * عن يد عبد القادر الوكيل .

سطر 03 : لعشرة لقد ..... * من زاره فاز بنيل المطلب .

سطر 04 : ... فاستمع خطابه .....* وماية من بعدها ثمانيـــة .

سطر 05 : فجاء مكمـولا بحمد الله * بفضل شيخنا عظيم الجـاه .

سطر 06 : فالله يقضي للذي تسبب * فيه بغفران وعفو وهبـــا .

سطر 07 : يقبـل الزايـر ان أتـــاه * ويرحم الملهوف ان دعـاه .

وقد ذكر تاريخ مائة وثمانية في هذه الكتابة وهذا التاريخ إذا أضيف إلى الألف يصبح 1108 هـ ويوافق تاريخ سنة 1696 وهو تاريخ بناء الضريح بالضبط وقد ذكر هذا التاريخ أيضا في كتابة أخرى ذكرناها سابقا لكنها ليست على الرخام .

هذا وقد كانت تلقى الدروس للطلبة أيضا في الضريح ، أي أنه كان زاوية أيضا ، لكن شهرته كضريح طغت على وظيفتيه الأخريين كمسجد وزاوية .

ويعد ضريح سيدي محمد بوقبرين واحدا من أشهر أضرحة مدينة الجزائر ، وقد كان يقع خارج الأسوار في منطقة بلوزداد حاليا ، بني هذا الضريح على قبر الإمام محمد بن عبد الرحمان الأزهري سنة 1206 هـ بحسب هو مدون على كتابة تأسيسية كانت توجد على لوحين رخاميين أعلى مدخل الضريح ونصها :

س1 - بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد واله وصحبه وسلم تسليما .

س2 - وهاذا الجامع المجاهدين جهاد الاكبر والاصغر معا صاحبه هو سيدي محمد بن عبد الرحمن بن احمد بن يوسف بن بالقاسم .

س3 - بن علي بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن احمد بن الحسين طلحة بن محمد جعفر العسكري بن عيسى .

س4 - الرضى بن موسى المرتضى بن جعفر الصادق بن محمد الناطق بن عبد الله بن حمزة .

س5 - بن ادريس بن ادريس بن عبد الله بن محمد بن الحسن .

س6 - بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم الملقب بالازهري .

س7 - مجاورة في جامع الأزهر تبرك الزوي اقليما القجطولي .

س8 -قبيلة السماعيلي عرشاً قائلا فمن زار هذا الجامع بنية .

س9 - فهو من سعداء الدارين ان شاء الله .

س10 - ووقع البناء المبارك في سنة 1206 .

وبحسب الأستاذ بورويبة فإن هذه الكتابة تلفت ولكنه استعان بنسخة عنها منفذة على مخطوط من الجلد موضوع داخل إطار خشبي ، وفيه اختلاف عن الكتابة الأصلية في السطر الأخير حيث كتب فيه : ووقع البناء في سنة 1205 وتوفي سيدي محمد بن عبد الرحمن بنفعنا الله به سنة 1209 ، كما لا نجد كلمة تسليما في السطر الأول .

لقد نفذت هذه الكتابة بحسب كولان على لوحين من الرخام يعلو أحدهما الآخر ، اللوح العلوي بارتفاع 30 سم وعرض 62 سم ، أما السفلي فارتفاعه 34 سم وعرضه 40 سم ، وقد نفذت الكتابة بخط نسخ جميل بطريقة بارزة ودهنت الكتابة بالأسود ، وتقع أربعة أسطر في اللوح العلوي ، بينما الست الباقية في اللوح السفلي .

وتوجد كتابة تذكارية أخرى أوردتها الأستاذة بن بلة تقع أعلى المدخل الرئيسي للضريح ، وقد نفذت بخط الثلث بطريقة غائرة وحشيت الكلمات بالرصاص ، وقد جاءت الكتابة في أربعة أسطر على شكل أبيات ، كل شطر منه داخل إطار نقرأ فيها :

س1 - بسم الله وأفضل * الذكر الحمد لله

س2 - يا سالك النهج من قاص ومن دان * يؤمل الخير من باق ومن فان

س3 - قف هاهنا وادع تعط ما تؤمله * فإن هذا مقام الفيض للعاني

س4 - هذا ابن عبد الرحمن لبحر ملتطما * باب الاله وشيخ الانس والجان

ويظهر أن الكتابة من وضع أحد مريدي الشيخ ممن لهم اعتقاد فيه وفي بركته وصلاحه والكتابة لا تحمل تاريخا كما نلاحظ ، كما أنها لم ترد عند كولان ولا بورويبة ، لكن من خلال حالتها قديمة وليست حديثة .

تنقسم هذه المنشأة إلى ثلاثة أقسام ، القسم الذي يضم قاعة الضريح وتوجد بوسطه قاعة الضريح أبعادها 5.78 م طولا و 2.53 م عرضا ، وتحيط بها مجموعة من الأروقة تستخدم كخلوات للمريدين ، والقسم الثاني هو قاعة الصلاة عمقها 14.1 م وعرضها 5.71 م ، وتضم محرابا مجوفا بعقد حدوي ويكتنفه عمودان مماثلان لباقي أعمدة قاعة الصلاة ، وبها ثلاث بلاطات عمقها هو عمق بيت الصلاة نفسه ، وتعلو المحراب قبة نصف كروية وعن جانبه أيضا ترتفع قبة أخرى أكبر حجما بقليل ، بالإضافة إلى قسم ثالث يسبق قاعة الصلاة به بعض الغرف تستخدم كمرافق ، وعن يسار المدخل الرئيسي في الجهة الشمالية الشرقية ترتفع مئذنة مربعة المسقط نفذت على بدنها بعض الزخارف المعمارية وتنتهي بشرفة مزخرفة يعلوها جوسق مربع المسقط وينتهي بقبيبة نصف كروية وسفود ، وخارج الضريح فضاء كبير مسور تحول إلى مقبرة .

ويعد ضريح إبراهيم بن التومي (ت1676) من أشهر أضرحة عنابة ، يقع بالقرب من محطة الحافلات ويعرف اليوم بمسجد إبراهيم بن التومي بعد أن صارت تقام فيه الصلاة ، ويرجع بناء الضريح إلى سنة 1769 من طرف علي باي التونسي ، وقد كان يتشكل البناء في أصله في قاعة دائرية تعلوها قبة نصف كروية وبها محراب مجوف عمقه 0.5 م ، وقد تعرض الضريح لتغييرات جذرية حيث أضيفت إليه قاعة نصف دائرية تعلوها قبة نقل إليها رفات صاحب الضريح وحولت القاعة الأولى الرئيسية إلى قاعة للصلاة .

أما في بسكرة فيعد ضريح سيدي المبارك واحدا من أشهر أضرحة المنطقة في العهد العثماني ، يقع بخنقة سيدي ناجي بجوار مسجد ومدرسة سيدي المبارك ، والضريح عبارة عن قاعة مربعة المسقط أبعادها 3.6 * 4.45 م ، وتعلوه قبة نصف كروية تقوم

على حنايا ركنية ثم منطقة انتقال مثمنة ، وتتصل بالضريح قاعتان كبيرتان بهما عدد كبير من القبور .

وفي سوق أهراس يوجد ضريح سيدي السعد بن أبي بكر ، وهو قاعة مستديرة قطرها 7.5 م تعلوها قبة نصف كروية ، ومدخل الضريح تعلوه كتابة على لوح رخامي ذكر بها اسم الشيخ لكن التاريخ غير واضح ، والضريح في شكله وزخرفته لضريح سيدي إبراهيم بن التومي بعنابة .

وعموما فقد عرف بناء الأضرحة انتشارا كبيرا بالجزائر خلال العهد العثماني ، لكننا حاولنا هنا ذكر بعض النماذج فقط ، ويلاحظ على هذه الأضرحة أنها اختلفت في تخطيطها وطريقة بنائها وزخرفتها وملحقاتها ، لكنها اتفقت غالبا في عنصر القبة ، كما نلاحظ أن هذه الأضرحة غالبا تلحق بمساجد أو مدارس أو مقابر ، وأحيانا يحدث العكس وتكون الأضرحة هي الأصل وتحلق بها منشآت أخرى ، وأحيانا أخرى تكون منفردة .